وسطية أبي بكر بن عمر الصنهاجي ودورها في نشر الإسلام في بلاد السودان الغربي 448-480هـ/ 1056-1087م

role of Abu Bakr Ibn Omar's Sanhaji moderation in the spread The *of Islam in Western Sudan 448- 480 A.H/ 1056-1087A.D*

1- د. حسام صلاحي، "باحث دائم" في المركز الوطني للدراسات والبحث في التاريخ العسكري الجزائري
houssam.salahi@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 11/07/ 2022 تاريخ القبول: 12/16/ 2022 تاريخ النشر: 12/31/ 2022

ملخص:
تعالج هذه الدراسة مبدأ الوسطية الذي تحلى به القادة المرابطون عامة وأبو بكر بن عمر خاصة أثناء فتوحاتهم في بلاد السودان الغربي إبان النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أين استطاع المرابطون بقيادة أبي بكر بن عمر من نشر الإسلام في مناطق شاسعة من بلاد السودان بفضل تطبيقهم مبدأ الوسطية، وقد واجه المرابطون تحديات جمة أثناء فتوحاتهم في بلاد السودان، فقد كلفتهم هذه الفتوحات العديد من التضحيات والمتاعب، فحركة التمرد في الجهة الجنوبية لم تهدأ، مما اضطر بأبي بكر بن عمر إلى تقسيم جيشه إلى قسمين: الجيش الشمالي للتفرغ لبلاد المغرب والأندلس، أوكل ابن عمه يوسف بن تاشفين إلى قيادته. والجيش الجنوبي تولي أبو بكر قيادته بنفسه، واستطاع إخضاع قبيلة جدالة التي بغت على قبيلة لمتونة، ولما أحكم سيطرته على القبائل المناوئة له وجه أبو بكر جهده إلى إمبراطورية غانا واستطاع نشر الإسلام في قبائلها التي كانت تدين بالوثنية بعد أن فتح عاصمتها، وأرغم ملكها على الدخول في الاسلام والحكم باسم المرابطيين. وتجلت وسطية أبو بكر لما عامل أهل غانة بالوسطية والاعتدال فخيرهم بين الدخول في الإسلام أو دفع الجزية على الرغم من شدة المعارك التي خاضها من أجل فتح بلاد غانة.

كلمات مفتاحية: الوسطية، المرابطون، بلاد السودان الغربي، انتشار الإسلام، أبو بكر بن عمر الصنهاجي.

*- المؤلف المرسل

Abstract: This study deals with the principle of moderation, which was demonstrated by the Almoravid leaders in general and Abu Bakr bin Omar in particular during their conquests in Western Sudan during the second half of the fifth century AH / eleventh century AD. The Almoravids, led by Abu Bakr bin Omar, were able to spread Islam in vast areas of Sudan by moderation. The Almoravids faced many challenges during their conquests in Sudan. These conquests cost them many sacrifices and troubles, as the rebellion movement on the southern side did not subside. Which forced Abu Bakr bin Omar to divide his army into two parts, the northern army worked in the Maghreb and Andalusia. He assigned his cousin Yusuf Ibn Tashfin to lead him, and the southern army, which Abu Bakr personally led it, was able to subdue the Jadalah tribe that attacked the Lamtouna tribe. When he tightened his control over the tribes opposed to him, Abu Bakr directed his efforts to the Ghana Empire. And he was able to spread Islam in its tribes that were idolatrous, after the conquest of its capital, and forced its king to enter into Islam and rule under Almoravids domination. The moderation of Abu Bakr emerged when he treated the people of Ghana with moderation, he giving them the choice between entering Islam or paying the tribute. He treated them with kindness, despite the intensity of the battles he fought to liberate their country.

Keywords: The Moderation, Almoravids,Western Sudan, Spread of Islam, Abu Bakr bin Omar Sanhaji.

1) مقدمة

قام مبدأ الوسطية الذي تحلى به الفاتحون المسلمون بدور كبير في نشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها قديما وحديثا، واستطاع المسلمون فتح قلوب العباد قبل فتح البلاد، وذلك بانتهاجهم منهج الوسطية والاعتدال مع الشعوب والقبائل التي فتحوها أو تعاملوا معها في مجال المعاملات المختلفة كالتجارة ونحوها. وبرز دور المرابطين عامة وأبي بكر بن عمر اللمتوني الصنهاجي خاصة في نشر الإسلام في بلاد السودان الغربي، في وقت تراجعت فيه حركية ونشاط الفتوحات الإسلامية منذ ثلاثة قرون خلت، وقد استطاع المرابطون بفضل إصرارهم وبعثهم لحركة الدعوة الإسلامية من توسيع رقعة الإسلام في بلاد السودان، من مملكة غانة وصولا إلى أواسط إفريقيا وذلك بفضل بروز رجال مخلصين رفعوا راية الدعوة في سبيل الله متشبعين بمبدأ الوسطية والاعتدال، على شاكلة يحي بن إبراهيم الكلداني، وأبي عمران الفاسي، وعبد الله بن ياسين الجزولي، وأبي بكر بن عمر. هذا الأخير تفرغ إلى الجبهة السودانية مثابرا في سبيل الدعوة، ناشرا للإسلام، مدافعا عن مبادئه، مؤثرا في خصومه بسماحة الإسلام ووسطيته ونبذه لكل أشكال العنف والتطرف المقيت، وانطلاقا مما سبق انتهجنا المنهج السردي التاريخي الملائم لطبيعة هذا الموضوع، محاولين تتبع أثر أبي بكر بن عمر الصنهاجي وكيفية تغلبه على مملكة غانا القوية، ومعرفة مدى دور وسطية هذا القائد الكبير في توسيع حركة الفتوحات الإسلامية جنوب بلاد المغرب.

2) الوسطية: مفهومها ودورها في انتشار الإسلام

إن انتشار الإسلام في حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ثم الصحابة الكرام - رضي الله عنهم أجمعين- والذين جاءوا من بعدهم في مشرق الأرض ومغربها عبر القرون المتتالية نجحت بفضل عدة عوامل وأسباب، منها تحلي المسلمين بمكارم الأخلاق وحسن تعاملهم مع الشعوب والقبائل التي احتكوا بها، ومن الأخلاق الراقية والمبادئ الراسخة التي اتصف بها الفاتحون المسلمون وتميزوا بها عن غيرهم، هو مبدأ الوسطية الذي كان له أبلغ الأثر في وصول الإسلام إلى أصقاع بعيدة من المعمورة وفي مدة وجيزة، فما هي الوسطية؟ وما دورها في انتشار الإسلام قبل ظهور المرابطين؟.

2-1- مفهوم الوسطية:

الوسطية لغة مشتقة من الوسط، ويفيد ابن فارس اللغوي والأديب(ت. 395هـ/ 1004م) بأن الواو والسين والطاء، بناء صحيح ويدل على العدل والنصف، كقوله سبحانه : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا** ﴾[1]

[1] ابن فارس أحمد بن فارس بن زكريا (ت. 395هـ/ 1004م) : **معجم مقياس اللغة**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، 1399هـ/1979م، ج.6، ص.108.

وفي اصطلاح المفسرين فإن للوسطية عدة معاني، منها: العدل، الخيار، الأكثر فضلا، التوسط في الأمور[2]، وضدها التطرف والغلو، هذا وقد عرفت الوسطية بعدة تعريفات، وفسرت بعدة تفسيرات، والذي يهمنا منها، بأن الوسطية في الإسلام تعني التوازن والاعتدال بين طرفين متضادين، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر، ومثال الأطراف المتضادة : الربانية والإنسانية، الروحية والمادية، الأخروية والدنيوية، الوحي والعقل، الماضي والمستقبل، الواقعية والمثالية[3]، فالإسلام وازن بينهما، فالذي يعدل ويوازن بين هذه الأطراف المتناقضة وغيرها فهو المعتدل والوسطي. وعرفت أيضا أنها اتباع دين الله والقيام به عقيدة وشريعة، أي لزوم أوامر الشرع، وترك نواهيه[4]. وفي العرف المتداول في أيامنا هذه، فإن الوسطية تطلق ويراد بها الاعتدال والتوسط في الاعتقاد والموقف والسلوك والنظام والمعاملة والأخلاق، مع احترام معتقد الآخرين[5].

2-2- دور الوسطية في انتشار الإسلام قبل العهد المرابطي:

أدت الوسطية بمفهومها الواسع الذي يدل على اتباع منهج الوسط بين الغلو والجفاء وبين الإكراه والتساهل إلى اكتساب الفتوحات الإسلامية سمة ميزتها عن بقية الفتوحات الأخرى وهي سرعة انتشارها وثباتها[6] واستطاعت أن تجمع بينهما قل أو يكاد ينعدم نظيراتها في التاريخ البشري، فهذا الفاتح الاسكندر المقدوني Alexander the great (336-323 ق.م)،الذي امتدت فتوحاته إلى تخوم الحدود الصينية إلاأن مشروعه سرعان ما تلاشى مباشرة بعد وفاته[7]، وكذلك جنكيز خان Gengis Khan (1206- 1227م) الذي امتدت فتوحاته أفاقا واسعة، حتى وصلت الإمبراطورية المغولية في أقصى اتساع لها من المحيط الهادئ شرقا إلى بحر المتوسط غربا، لكن سرعان ما تسرب الضعف والوهن إلى دولته المترامية الأطراف، وانقسمت إلى

---

[2] للمزيد من الشرح حول تعريف الوسطية عند المفسرين، ارجع إلى : قحطان عبد الرحمان الدوري: **مفهوم الوسطية في القرآن والسنة**، كتاب ناشرون، بيروت، 1438هـ/2017م.

[3] يوسف القرضاوي : **كلمات في الوسطية الإسلامية**، ط.3، دار الشروق، القاهرة، 2011م، ص.13.

[4] أبو عبد الرحمن عيد بن أحمد فؤاد : **الوسطية في الإسلام بين أهل الغلو والجفاء**، دار الإمام البرهاري، القاهرة، 1438هـ/2017م، ص.16.

[5] رانيا محمد عزيز نظمي : الوسطية في الترفيه بين المشروع والممنوع، في حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، العدد 26، المجلد 3، 1431هـ/2010م، ص.3.

[6] جميل عبد الله محمد المصري : **دواعي الفتوحات الإسلامية ودعاوي المستشرقين**، دار القلم بدمشق والدار الشامية ببيروت، (د. ت.)، ص.11.

[7] فوكس وبيرن : **الاسكندر الأكبر**، إشراف د. رءوف سلامة موسى، دار ومطابع المستقبل بالفجالة والإسكندرية ومؤسسة المعارف ببيروت، (د. ت.)، ص.134-135.

دويلات متناحرة[8]. والناظر يدرك أن سبب تهاوي هذه الإمبراطوريات وسقوطها بسرعة هو فقدانها لمشروعٍ حضاريٍ قائم على أخلاق ومبادئ ثابتة.

نجحت حركة الفتوحات الإسلامية إلى حد بعيد في تحقيق أهدافها المسطرة لها، والمتمثلة في نشر الإسلام عبر ربوع المعمورة، وعدم حصره في قبيلة أو شعب أو جنس أو طبقة من المجتمع، فهو دين وسطي جاء لكلِ الناس عربهم وعجمهم، صغيرهم وكبيرهم، ملكهم ومملوكهم، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[9]. ومما يدل على أن الفتوحات الإسلامية تبنت وطبقت مبدأ الوسطية والاعتدال هو أن المسلمين لم يكن غرضهم تحقيق المنافع الدنيوية فحسب، إنما هو الرغبة في نشر دين الله، وذلك [عبر إنذار الناس ودعوتهم إلى دفع الجزية أو اعتناق الإسلام وإلاأعلن الجهاد[10]، وحتى مع إعلان الحرب فإن المسلمين تحلوا بالوسطية في أبهى صورها من خلال قتال المحاربين وتجنيب المستضعفين من الشيوخ والنساء والأطفال[11]. فالاعتماد على القوة العسكرية وحدها لا تحقق البقاء، وتجربة المسلمين أثبتت أن توظيف العامل الحضاري في الفتوحات هو الكفيل بتحقيق الثبات والنجاح لأي فتح من الفتوحات[12].

ومهما يكن من أمر، فإن الواقع والاستقراء التاريخي أثبت بأن المسلمين في جل فتوحاتهم تحلوا واستمسكوا بمبدأ الوسيطة ولم يحيدوا عنه، وأورد في هذا الصدد عبد الرحمن حسن الميداني كلاما يترجم مبدأ الوسطية بقوله :« **وقد أثبت تاريخ الأمة الإسلامية أنه لم يكن من المسلمين إكراه لأمة من الأمم على الدخول في الإسلام، وأثبت أن الحروب الإسلامية كانت إما حروبا دفاعية، وإما حروبا لتأمين توصيل الدعوة إلى جماهير الشعوب المغلوبة على أمرها من قِبل حكامها المتسلطين عليها بالقهر، وإما حروبا لرفع الظلم عن الناس وإقامة الحق والعدل**»[13].

3- الفتوحات الإسلامية في بلاد السودان الغربي قبل عهد المرابطين:

---

[8] برتولد شبولر : **العالم الإسلامي في العصر المغولي**، ترجمة خالد أسعد عيسى، مراجعة وتقديم سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، 1402هـ/1982م، ص.127-128.

[9] الآية 107 من سورة الأنبياء.

[10] للمزيد من الإيضاح حول الوسطية والاعتدال التي تميز بها المسلمون في حروبهم وسلمهم، يرجى العودة إلى: محمد إقبال النائطي الندوي : **أخلاقيات الحرب في الإسلام**، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ايسيسكو، الرباط، 1435هـ/2014م.

[11] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « **أن امرأة وجدت في بعض مغازي النبي صلى الله عليه وسلم مقتولة، فأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل النساء والصبيان**» أخرجه البخاري برقم 3012 ومسلم برقم 1364

[12] عمر فروخ : **تجديد التاريخ في تعليله وتدوينه « إعادة النظر في التاريخ »**، دار الباحث، بيروت، 1401هـ/1980م، ص.67.

[13] عبد الرحمن حسن الميداني : **الوسطية في الإسلام**، مؤسسة الريان، بيروت، 1416هـ/1996م، ص.68.

بدأ الدين الإسلامي الدخول إلى بلاد المغرب منذ النصف الأول من القرن الأول للهجرة/ السابع الميلادي، ومن ثم نفذ إلى بلاد السودان[14]، أي منذ وقت الفاتح الكبير والمجاهد الشهير عقبة بن نافع الفهري (ت. 63هـ/683م)[15]. وأورد ابن عذراي المراكشي (ت. بعد 712هـ/ 1312م) أن عقبة بن نافع استطاع خلال ولايته الثانية إخضاع الأجزاء الشمالية من بلاد السودان فقال: «**... وغزوته أيضا للبربر بالسوس الأدنى وهي بلاد تامسنا وهي بلاد المصامدة فهزمهم وأفناهم ... وغزوته أيضا للسوس الأقصى فاجتمه به البربر في أمم لا تحصى ... ونزل في درعة[16] إلى بلاد صنهاجة[17]، ثم إلى بلاد هسكورة، ثم نزل أغمات وريكة، ثم نزل منها**

---

[14] حدد موقعها القلقشندي (ت.821هـ/1418م) في قوله: « **وهي بلاد متسعة الأرجاء رحبة الجوانب، حدها من الغرب البحر المحيط الغربي، ومن الجنوب الخراب مما يلي خط الاستواء، ومن الشرق بحر قلزم (الأحمر) مما يقابل بلاد اليمن والأمكنة المجهولة الحال شرقي بلاد الزنج في جنوبي البحر الهندي، ومن الشمال البراري الممتدة فيما بين الديار المصرية وأرض برقة، وبلاد البربر، من جنوبي المغرب إلى بحر المحيط والمشهور منها ست ممالك** » : صبح الأعشى، دار الكتب الخديوية، القاهرة، 1333هـ/1915م، ج.5، ص.273. ويرجع الناصري أصلهم إلى سلالة سام بن نوح عليه السلام، وهذا باتفاق النسابين والمؤرخين. للمزيد من الشرح والإيضاح ارجع إلى: الناصري أبو العباس أحمد بن خالد : **كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955،ج.5، ص.99. وعن منهجية دراسة تاريخ السودان ومدى أهمية الكتابات العربية عن هذه المنطقة، ارجع إلى : محمد دوكوري : مرجعية المصادر العربية في أخبار بلاد السودان تاريخ منسا موسى نموذجا، في مجلة كان التاريخية، العدد 23، السنة السابعة، الكويت 1435هـ/2014م، ص.9-16.

[15] ناصر بن محمد بن عبد الله الأحمد : **حركة الجهاد والفتح الإسلامي في عهد الدولة الأموية وأثرهما في الدعوة إلى الله تعالى وانتشار الإسلام**، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية ، إشراف د. عبد الرحمان بن عثمان حجازي ، معهد الدعوة الجامعي، جامعة بيروت، السنة الجامعية (1429 هـ/2008 م)، ص.114.

[16] بلدة تقع في جنوب المغرب، تبعد عن سلجماسة أربعة فراسخ، اشتهرت بتجار اليهود. الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت.622هـ/1225م) : **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت،1397هـ/1977، ج.2، ص. 451.

[17] صنهاجة تعد من أكبر قبائل البربر عددا، يوجدون في مختلف أقطار بلاد المغرب، وهناك رأي يفيد بأنهم يشكلون ثلث البربر، يرجع نسبهم إلى صنهاج بن بر بن صوكان بن منصور بن الفند بن أفريقش بن قيس. ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن محمد (ت. 808هـ/1406م): **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الفكر، بيروت، 2000، ج.6، ص.2001. ولمزيد من المعلومات حول أصل وبطون ومضارب الصنهاجين، ارجع إلى : رضا بن النية : **صنهاجة المغرب الأوسط من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين إلى مصر (80هـ-699م/362هـ-973م) دراسة اجتماعية**، رسالة لنيل درجة شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط ، إشراف د. بوبة مجاني ، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، السنة الجامعية (1426-1427 هـ/2005 -2006م).

علو وادي نفيس...»[18] واستطاع الأمويون إخضاع بلاد المغرب وضمها إلى خلافتهم قبل انتهاء القرن الهجري الأول[19]. وأفاد البلاذري، أن موسى بن نصير وصل إلى بلاد السوس فاتحا ناشرا لدين الإسلام[20].

إن انتشار الإسلام في بلاد السودان الغربي ساهمت فيه العديد من العوامل والأسباب، فقد لعبت الروابط التجارية بين بلاد المغرب وبلاد السودان دورا كبيرا في انتشار الإسلام في السودان الغربي منه والشرقي[21]، ولم تكن التجارة العامل الوحيد في نفوذ الإسلام إلى بلاد السودان كما يدعي بذلك بعض المستشرقين الحاقدين على الإسلام بزعمهم أن دعوة المسلمين اقتصرت على كبار التجار وزعماء القبائل، وأن الدافع الرئيسي للمسلمين في ولوجهم إلى بلاد السودان إنما كان بدافع اقتصادي وتحصيل الربح المادي فقط[22]. وفي هذا الصدد، أفاد الكثير من الباحثين والدارسين المهتمين بتاريخ بلاد السودان أن المسلمين كان لهم تأثير كبير في عامة أهل البلد[23]، وبالإضافة إلى التجارة هجرة السودانيين إلى أصقاع مختلفة من العالم

---

[18] ابن عذارى أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي (ت. في القرن 8هـ/14م) : **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تح. ج. س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، ط.3، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج.1، ص. 26-27.

[19] نادية محمود مصطفى وآخرون: **الدولة الأموية دولة الفتوحات 41-132هـ/661-750م**، المعهد العالي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1417هـ/1996م، ص.38-45.

[20] أبو العباس أحمد بن يحي البلاذري (ت. 279هـ/892م) : **فتوح البلدان** : تح. عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، 1407هـ/1987م، ص.322.

[21] أوكيل مصطفى باديس : **انتشار الإسلام في بلاد المغرب وآثاره على المجتمع خلال القرن الأول الهجري** رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي ، إشراف د. صالح بن قربة، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر2، السنة الجامعية (1424-1425 هـ/2005-2006 م). ص.121. ينظر أيضا : حورية توفيق مجاهد : تاريخ انتشار الإسلام في إفريقيا الأبعاد والوسائل، في مجلة قراءات إفريقية، العدد السادس، شوال 1431هـ/2010م، ص.14-26.

[22] ممن ذهب إلى هذا الرأي وأظهر حقده الدفين على التواجد الإسلامي في بلاد السودان الغربي، سواء أكان قبل المرابطين أو بعدهم، هو المستشرق البريطاني ترمنجهام، وهناك دراسة متخصصة ردت على دعاويه الباطلة وافتراءاته المضلة، منها الدراسة التي قام بها الباحث : سعود بن حمد الخثلان : المستشرق ترمنجهام ومنهجه في دراسة انتشار الإسلام في غرب إفريقيا وموقفه من الإسلام والمسلمين، في مجلة جامعة عبد العزيز للآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 9.

[23] المستشرقون ليسوا سواء، فمنهم من أنصف المسلمين في فتوحاتهم ودعوتهم للإسلام في بلاد السودان، ومن هؤلاء يوجد المستشرق الايرلندي، صاحب الكتاب التالي :

T. W. Arnold M. A C.I.E., **The Preaching of Islam A History of the Propagation of the Muslim Faith,** 2 nd edt, Constable and Company LTD., London, 1913.

الإسلامي خاصة بلاد المغرب ومصر والأماكن المقدسة الإسلامية دون نسيان حلقات الوعظ والإرشاد التي قام بها الدعاة المسلمون في أرجاء بلاد السودان[24].

ومهما يكن من أمر، فإن ارتباط المغاربة ببلاد السودان ليس بالعهد القريب، وإنما يرجع إلى ما قبل ظهور الإسلام، فقد كان نهر النيجر عند الحافة الجنوبية للصحراء نقطة اتصال بين البربر والسودانيين، وزاد من مكانة المنطقة توفرها على مادتين أساسيتين في المعاملات التجارية في العصرين القديم والوسيط وهما الملح[25] والذهب الذي تمتعت به بلاد السودان[26]. وكانت التجارة مع السودان تدر أرباحا طائلة نظرا للسلع النفيسة التي كانت تزخر بها المنطقة، والمخاطر على طول الطريق التجاري، وانتفع المغاربة أيما انتفاع بهذه العلاقة، فقد ساهمت في إعمار العديد من القرى والمدن الواقعة على طول المسالك التجارية الرابطة بين بلاد السودان والمغرب، وهو ماساهم في احتكاك حضاري بين طرفين، انجر عنه انتشار الإسلام في بلاد السودان بنسب متفاوتة بين منطقة وأخرى[27]، إلا أن الإسلام لم ينتشر في جميع مناطق بلاد السودان الغربي إلا مع قدوم المرابطين وشروعهم في نشر الإسلام هناك خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

1-3- أبو بكر بن عمر ودوره في فتوحات المرابطين في بلاد المغرب والسودان الغربي

أورد ابن الأثير (ت.630هـ/1233م) في كتابه[28] بأن المرابطين[29] هم عدة قبائل ينسبون إلى حمير أشهرها لمتونة وجدالة ولمطة، ويرجع أول مسيرهم من اليمن إلى الشام في عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق _

---

[24] Hizbullah Alhassan Aliyu, The Factors Responsible for the spread of Islam in West Africa, In Proceedings of 72 nd the IRES International Conference, Mecca, Saudia Arabia, 23rd-24th June 2017, p. 63-65.

[25] أفاد ابن بطوطة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي (ت.779هـ/1377م) بأن أهل السودان يتصارفون بالملح عوض الذهب والفضة، يقطعونه أجزاء ويبيعونه:: **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997، ج.4، ص.241.

[26] دونالد ويدنر: **تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء**، تر. راشد البراوي، مكتبة الوعي العربي، الفجالة، (د. ت.)، ص.38.

[27] محمد بن ساعو : **التجارة والتجار في المغرب الإسلامي القرن 07-10هـ/13-15م**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف مسعود مزهودي، شعبة التاريخ، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والإسلامية، جامعة الحاج لخضر باتنة، السنة الجامعية 1434-1435هـ/2013-2014م، ص. 132-133.

[28] ينحدر المرابطون من قبيلة لمتونة، وهي إحدى بطون قبيلة صنهاجة وهي فرع من قبيلة البرانس الكبرى، وصلت دولة المرابطين في أقصى حدودها من ليبيا شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ومن بلاد الأندلس شمالا إلى بلاد السودان جنوبا. للمزيد من الشرح والإيضاح ارجع إلى : محمد عبد الله عنان : **دولة الإسلام في الأندلس العصر الثاني دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي**، ط.4، مكتبة الخاني، القاهرة، 1417هـ/197م، ص.299.

رضي الله عنه _ وانتقلوا بعدها إلى مصر، وتمكنوا من الولوج إلى بلاد المغرب في عهد موسى بن نصير ثم توجهوا مع طارق بن زياد إلى طنجة ونظرا لحبهم الانفراد والعزلة دخلوا إلى الصحراء واستوطنها. وفي سنة 427هـ/1035م خرج يحي بن إبراهيم من قبيلة جدالة إلى الحج وأثناء عودته وجد جماعة من الناس يتفقهون على يد أبي عمران الفاسي (ت. 430هـ/1039م)[30] ، وطلب منه يحي بن إبراهيم أن يمده بأحد المشايخ ليفقه قومه في الدين فأرسل معه الداعية[31] عبد الله بن ياسين[32] الذي حمل راية الإصلاح الديني

---

[29] يعود سبب تسميتهم بالمرابطين وهو أن عبد الله بن ياسين لما وجد صعوبة في إقناع الناس بالعقيدة الصحيحة ثار عليه الأشراف والأمراء وكادوا أن يقتلونه، فتوجه إلى رباطه بالقرب من مصب نهر السنغال سنة 433هـ/1042م، ووضع شروطا لقبول دخول الناس في رباطه، وأصبح عدد المرابطين يقدر بآلاف. لمزيد من الشرح حول رباط عبد الله بن ياسين، ارجع إلى: علي محمد الصلابي : **فقه التمكين عند المرابطين**، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 1427هـ/2006م، ص.15-33.

[30] ترعرع بفاس وتلقى بها تعليمه الأول، ثم ارتحل إلى الأندلس وأخذ العلم على يد شيوخها، بعدها انتقل إلى مشرق وحضر مجالس العلم والعلماء في كل من بغداد ومكة، انتهى به المقام في القيروان مدرسا للقرآن والحديث والفقه، توفي سنة 430هـ/1039م، ترك العديد من المؤلفات منها: **التعليق على المدونة**. للمزيد من الشرح والمعلومات حول هذه الشخصية، ارجع إلى : عبد الله المرابط الترغي : **فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة، منهجيتها-تطورها-قيمتها العلمية**، جامعة عبد الملك السعدي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، 1420هـ/1999، ص. 598.

[31] قامت دعوة عبد الله بن ياسين على مبدأ الوسطية، فقد أورد محمد الطوكي نقلا عن عثمان الكعاك قوله :« **وكان العمل المرابطي قائم على الدعاية ونشر الإسلام المبسط ومقاومة البدع وتنقية العقيدة والأعمال مما علق بها من متبقيات الوثنية، أو تسرب إليها من شعائر المجوس والنصارى واليهود. ونبوغ ابن ياسين يتبين لنا في معرفته نفسية مخاطبيه من صنهاجة وتيسير التعاليم الإسلامية الحقيقية لدخول قلوبهم وعقولهم. فنجح هذا النجاح الباهر واعتبر من أكبر مصلحي الإسلام وأنبه مناصيريه**». دور الرحلة ومساهمة عباد ونساك رباط اكلو في قيام دولة المرابطين ونشر الثقافة الإسلامية في الجنوب الغربي، في ملتقى التصوف في الجنوب المغربي، تيزنيت أيام 1 إلى 3 شهر يوليو، 2005، غير منشور، ص. 398.

[32] هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن علي الجزولي، أصله من قرية تماماناوت تقع في طرف صحراء غانة، درس على وجاج بن زلوا أحد فقهاء سوس، ثم ارتحل إلى الأندلس ومكث فيها سبعة سنوات، ثابر من أجل التحصيل العلمي حتى تفرس فيه، فهم المحيط الذي يعيش فيه فكان يخاطب قومه بالعربية وبالبربرية، ابتدأ نشاطه الدعوي سنة 430هـ/1038م إلى أن وافته المنية مجاهدا سنة 449هـ/1057م. للمزيد من التفصيل حول شخصية وانجازات عبد الله بن ياسين، ارجع إلى : ابن عذارى المراكشي: المصدر السابق، ج.1، ص. 254؛ علي محمد الصلابي : **الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين**، دار الدعوة، القاهرة، 1424هـ/2003م، ص.23.

والسياسي في بلاد المغرب[33]، وأخذ يدعو إلى المذهب المالكي، ويذم علم الكلام[34]. فلقيت دعوته إقبالا كبيرا لدى المغلوبة الذين نال إعجابهم به نظرا لعلمه وأخلاقه وإخلاصه لعمله[35].

ويرجع تاريخ قيام دولة المرابطين في بلاد المغرب إلى سنة 448-541هـ/1056-1147م واستطاعت توحيد الغرب الإسلامي[36] انطلاقا من المغرب الأقصى خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وقد عرف المرابطون[37] باسم الملثمين[38] واللمتونيين[39].

برزت شخصية أبي بكر بن عمر[40] وسطع نجمها مع شروع عبد الله بن ياسين دعوته الإصلاحية في بلاد المغرب[41]، رفقة عدد من تلامذته وخاصته، والذين لقبوه بأمير المسلمين[42]. وتجلت وسطيته في باب الجهاد لأنه

---

[33] ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت. 630 هـ/1232م) : **الكامل في التاريخ**، ط. 4، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983، ج. 8، ص.447-448؛ محمد شيت خطاب : **قادة فتح المغرب العربي**، ط.6، دار الفكر، بيروت 1404هـ/1984م، ج.2، ص.180.

[34] جورج مارسيه : **بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، تر. محمود عبد الصمد هيكل، مر. مصطفى أبو ضيف أحمد، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1999، ص.273.

[35] عبد العزيز بن عبد الله الحميدي : **التاريخ الإسلامي مواقف وعبر (ما بعد الخلفاء الراشدين)**، دار الدعوة، الإسكندرية، 1425هـ/2004م، ص.248.

[36] Sir Thomas W. Arnold, C. I. E, **The Caliphate**, Oxford University Press, 1924, p .83-84.

[37] للمزيد من المعلومات عن المرابطين ارجع إلى : إبراهيم القادري بوتشيش : **المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع، الذهنيات والأولياء**، دار الطليعة، بيروت، 1993.

[38] سموا كذلك لأنهم لا يكشفون عن وجوههم أي يتلثمون، أصبحت عادة عندهم يتوارثها اللاحقون عن السابقين، ارجع إلى : ابن خلكان (ت. 681هـ/1282م) : **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تح. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د. ت.)، ج.7، ص.129.

[39] نسبة إلى قبيلة لمتونة التي قال عنها ابن عذارى المراكشي بأنها مشهورة بالجلد في القتال، إلى درجة أنهم يؤثرون الموت على الفرار من ميدان المعركة، فلم يعرف عنهم قط التولي يوم الزحف، وهذا ما أهلهم إلى استئثارهم بحكم الدولة المرابطية دون سائر بطون وأفخاذ صنهاجة، ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق، ج.4، ص .11؛ جمال أحمد طه: **مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين 448هـ/1056م إلى 668هـ/1269م دراسة سياسية وحضارية**، دار الوفاء، الإسكندرية، 2001، ص.84.

[40] للمزيد من التفصيل حول شخصية وحياة أبا بكر بن عمر، ارجع إلى: العباس بن إبراهيم السملالي : **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، مراجعة عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1413هـ/1993م، ج.1، ص.196-204.

[41] موسى لقبال : **الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي نشأتها وتطورها**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971، ص.47-49.

[42] ابن الأثير : المصدر السابق، ج.8، ص.448.

كلف طلبته بإبلاغ قبائلهم وعشائرهم تحكيم الكتاب والسنة[43]، ولما تحقق منهم الإعراض والرفض، أخذ في الإجهاز على القبائل الخارجة عن الإسلام أو المائلة عنه ميلا كبيرا، كالبرغواطين، واستطاع هذا القائد المظفر فتح سلجماسة[44]، وقد التزم المرابطون في دعوتهم مبدأ الوسطية من خلال تطبيق العدل حتى مع الد أعدائهم ومناوئيهم، في السلم كما في الحرب[45]. وفي هذا الخصوص أورد النويري (ت. 733هـ/1333م) بأن أهل الشر والفساد أرادوا البطش بعبد الله بن ياسين وأبي بكر بن عمر وقاموا بإيذائهما إلاأنهما أعرضا عن من ظلمهم، بل هادنوهم، واستعانوا بالصالحين من قومهم[46]، فكفوهم شرهم[47].

التحق أبو بكر بدعوة عبد الله بن ياسين منذ انطلاقتها، فقد عينه أخوه يحي بن عمر أميرا واستنابه على درعة نظرا لانشغاله في محاربة قبائل جدالة التي لم تذعن لطاعة عبد الله بن ياسين، واستطاع أبو بكر إنشاء جيش كبير من لمتونة ومسوفة ولمطة وترجة، وبوفاة الأمير يحي بن عمر اللمتوني سنة 447هـ/1055م، اضطر عبد الله بن ياسين تعين أخيه عبد الله وهو أبو بكر بن عمر[48].

إن تطبيق مبدأ الوسطية لدى زعماء دعوة المرابطين كعبد الله بن ياسين وأبي بكر بن عمر شجع بعض القبائل على الانضمام إليهم سلما، بل روي أن فقهاء سلجماسة ودرعة اجتمعت كلمتهم على دعوة المرابطين للقدوم عليهم، ليطهروا مجتمعهم من مظاهر الانحراف والعصيان والمنكرات والظلم المسلط عليهم من طرف

---

[43] عبد العزيز بن سعود الضويحي : **أثر الفقهاء في نشر الإسلام في إفريقيا دولة المرابطين نموذجا**، في حولية مركز البحوث والدراسات الإسلامية، السنة السابعة، العدد 24، ص.701.

[44] تتمتع بموقع هام، وزاد من أهميتها وقوعها على نهر يزداد فيه الماء صيفا، تنتشر فيها الزراعة على نطاق واسع، وأهلها في رغد من العيش، ويظهر عليهم الرخاء من خلال ملابسهم وأبنيتهم. ابن حوقل أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي (ت. بعد 367 هـ/977م) : **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992، ص. 90.

[45] إسماعيل بن الأحمر: **بيوتات فاس الكبرى**، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1972م، ص.27-28.

[47] النويري أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم (ت. 733هـ/1333م) : **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق عبد المجيد توحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت.)، ج.24، ص.141-142.

[48] عصمت عبد اللطيف دندش : **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا 430-515هـ/1038-1121م، مع نشر رسائل أبي بكر بن العربي**، دار الغرب الإسلامي، 1408هـ/1988م، ص. 95-98.

أمرائهم، فما كان من قادة المرابطين إلا أن استجابوا للنداء وتوجهوا إلى سلجماسة ودرعة وخلصوهما من ظلم الأمراء[49].

شرع أبو بكر بن عمر حملاته الجهادية في بلاد السوس[50]، ففي سنة 448هـ/1055م شن هجمات على طائفة الشيعة الروافض[51]، وقاتل اليهود[52] توجه بعدها إلى أغمات[53] التي كانت تحت سيطرة المغراوين وافتتحها سنة 449هـ/1057م، ومكث فيها قرابة شهرين يطارد فلول المقاومين إلى أن ظفر بأمير أغمات لقوط المغراوي فقتله، وأنكح زوجته زينب النفزاوية[54]. واعتبر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي انتصارا للمذهب المالكي في بلاد المغرب، فأصبح هذا المذهب منتشرا عند عامة المغاربة وغدا مذهبا وعقيدة، ولم يتأت ذلك إلا بعد كفاح طويل وجهود مضنية بذلها المغاربة عموما والمرابطون خصوصا[55].

---

[49] نداء محمد نافذ مشهور بهلول : **جوانب الرشد في حكم المرابطين في المغرب والأندلس**، رسالة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ، إشراف، د. خالد يونس الخالدي، قسم التاريخ والآثار، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية بغزة، السنة الجامعية 1435هـ/2014م، ص.54.

[50] ذكر ابن حوقل الخلاف الطائفي الموجود في مدينة السوس في قوله: «**وأهل السوس فرقتان مختلفتان مالكيون أهل سنة، وموسويون شيعة يقطعون على موسى بن جعفر من أصحاب علي بن ورصند، والغالب على الجميع الجفاء والغلظة في العشرة وقلة رقة الطبع، والمالكيون من فظاظ الجشوية وبينهم القتال المتصل والدماء الدائمة، ولهم بالبلد مسجد جامع تصلى فيه الفرقتان فرادى عشر صلوات، إذا صلت فرقة تلتها الأخرى بعشرة أذانات وعشر إقامات** ». : المصدر السابق، ص. 90.

[51] ابن الأثير : المصدر السابق، ج.8، ص.448.

[52] يعود الوجود اليهودي في بلاد المغرب إلى فترة ما قبل الفتوحات الإسلامية، فقد استقروا في المغرب الأدنى والأوسط والأقصى، ونظرا لاشتغال اليهود بالنشاط التجاري في جل الأزمنة والأمكنة فإن تواجدهم كان في المدن ذات الأهمية التجارية على شاكلة القيروان، المهدية، تاهرت، فاس وسلجماسة، لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، ينظر : المراكشي محي الدين عبد الواحد بن علي التميمي (647هـ/1250م) : **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين**، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 1426هـ/2006م، ص.223؛ عبد الرحمان بشير : **اليهود في المغرب العربي (22-462هـ/642-1070م)**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، 2001.

[53] تقع قرب وادي درعة، تبعد عن نفيس مرحلة، أهلها تجار أثرياء إلى درجة أنهم يدخلون بلاد السودان بقناطير من الأموال والنفائس، الحميري أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت. 900هـ/1495م): **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تح. إحسان عباس، ط.2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص.46.

[54] كارل بروكلمان : **تاريخ الشعوب الإسلامية**، تر. نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط.5، دار العلم للملاين، بيروت، 1968، ص.318.

[55] حسن أحمد محمود : **قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى**، دار الفكر العربي، القاهرة، (د. ت.)، ص.90.

زحف أبو بكر بن عمر رفقة قائده عبد الله بن ياسين مع جماعته صوب قبيلة برغواطة[56] التي استفحل أمرها ومرقت من الإسلام[57]، واشتعلت موجة من المعارك الطاحنة بين الطرفين حتى استطاع البرغواطيون قتل زعيم المرابطين عبد الله بن ياسين الذي أصيب بجروح بالغة أودت بحياته، وذلك سنة(451هـ/1059م)[58]. واتفق أهل الحل والعقد في خضم هذه المعركة الحامية اختيار أبا بكر بن عمر زعيما للمرابطين، واتفقوا جميعا على بيعته ومنحه الزعامة السياسية والدينية[59]، والملاحظ بأن الصبغة السياسية للأمير طغت على الصبغة الدينية منذ أن تولى الإمارة[60]، واستطاع هذا القائد توجيه ضربات موجعة للبرغواطيين فتفرق بعضهم في الفيافي، وبايعه من بقي منهم[61]. وأسلموا إسلاما جديدا، ولم تقم لهم قائمة وانقرضت ديانتهم[62].

ومهما يكن من أمر، فإن أبا بكر بن عمر اللمتوني انتهج نهج عبد الله بن ياسين في مقارعة الأعداء، فإن القبائل التي حاربها الرجلان لم تعرف من الإسلام إلى اسمه ولا من القرآن إلا رسمه، وبعضهم ترك الإسلام كلية[63]. ومع ذلك حاولوا جاهدين في تعليمهم بشتى الطرق وإقناعهم بالدخول في الحركة الإصلاحية المرابطية القائمة على الكتاب والسنة، فإن أبوا ينذرونهم وإلا يكون السيف بينهم[64].

---

[56] أسس هذه الفرقة رجل يهودي يدعى بصالح بن عبد الله، درس علم التنجيم في العراق، ادعى النبوة والرسالة، وزعم بأنه هو المقصود في قوله تعالى : ﴿ **وصالح المؤمنين** ﴾، سنّ لهم شرائع باطلة تتنافى مع تعاليم الإسلام، ومن ذلك شرع لهم صيام شعبان وإفطار رمضان، ودعاهم إلى الإباحية. للمزيد من المعلومات عن هذه الطائفة الضالة. ابن حوقل: المصدر السابق، ص. 82-83.

[57] لمزيد من المعلومات حول بطلان ديانة البرغواطيين، يرجى العودة إلى : سحر السيد عبد العزيز سالم : **من جديد حول برغواطة هراطقة المغرب في العصر الإسلامي**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1993، ص.53-59.

[58] مقديش محمود بن سعيد (ت. 1228 هـ /1813 م): **نزهة الأنظار في عجائب التوا يخ والأخبار**، تح. علي الزاوي ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، 1988،ج.1، ص.432.

[59] جمال أحمد طه : المرجع السابق، ص.83-84.

[60] حسن أحمد محمود : المرجع السابق، ص.220.

[61] سحر السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق، ص.59-60.

[62] حسن أحمد محمود : المرجع السابق، ص.212.

[63] أفاد النويري بأن بعضا من الفقهاء أعابوا على عبد الله بن ياسين منهجه في حركته الإصلاحية، وما تقوم به من وضع الحد لبعض المارقين، ومن ضمن ما قاله: « **وليس دأبهم إلا إغارة بعضهم على بعض وقتل بعضهم لبعض، ولا دية لهم في الدماء، ولا حرمة عندهم للحريم، ولا توقى بينهم في الأموال، فأخبرتهم بالمفروض عليهم والمسنون لهم والمحدود فيهم. فمن قبل واليته، ومن تولى أرديته، وما تجاوزت حكم الله ولا تعديته، والسلام**». المصدر السابق، ج.24، ص.142-143.

[64] نهى الزيني : **أيام الأمازيغ أضواء على التاريخ السياسي الإسلامي**، دار الشروق، القاهرة، 2011، ص.71-75.

الواقع أن أبا بكر بن عمر بقي محافظا ووفيا لمبدأ الوسيطة والاعتدال في أمور الحكم عامة، وفي مسائل الجهاد خاصة، فكان لا يلجأ إلى القتال إلا بعد استنفاد كل الوسائل والطرق المتاحة، ويحاول قدر المستطاع تجنب كل مظاهر العنف والتطرف مع المسلمين أو مع غيرهم من الملل والنحل الأخرى، ومن ذلك، أنه لما عزم الخروج إلى بلاد السوس ثانية، اعترض طريقه اثنا عشر ألف من الزناتيين وأهل السوس ولم يكن معه سوى ألفي راكب، فحاول إقناعهم بتخلية سبيله ومن معه من الجيش إلا أن القوم رفضوا طلبه واستعدوا للقتال، فأدى صلاة الظهر ثم قال : « **اللهم إن كنا على الحق فانصرنا عليهم، وإن كنا على الباطل فأرحنا بالموت مما نحن فيه**». فاستعان بالله وقاتلهم قتالا مستميتا، فأظهره الله عليهم، وهزمهم شر هزيمة، فعظمت مكانته وهيبته ومن معه من أصحابه[65].

تابع أبو بكر بن عمر سياسة إخضاع القبائل إلى سلطته فتمكن من فتح العديد من القرى والحصون، أمثال زناتة ومكناسة لواتة وكان ذلك سنة 452هـ/ 1060م. وفكر في اتخاذ عاصمة جديدة لدولته بدل أغمات، فوقع اختياره على مراكش[66]، ومعناها قصر الحجر، لأن مبانيها شيدت بهذه المادة[67]، وتم الشروع في بنائها منذ سنة 454هـ/1062م، وقيل أنه بدأ في تشيدها سنة 462هـ/1070م[68].

2-3- اشتغال أبي بكر بن عمر بجهة السودان الغربي:

مكث أبو بكر بن عمر في عاصمته الجديدة قليلا، فسرعان ما جاءه الخبر بنشوب حرب بين جدالة ولمتونة[69] ، فذهب مسارعا إلى الجنوب[70] من أجل بسط السيطرة على القبائل المتمردة على حلفائه اللمتونيين، فقد أدت هذه الظروف إلى انتهاج أبي بكر بن عمر سياسية جديدة تقضي بتقسيم الجيش إلى

---

[65] النويري : المصدر السابق، ج.24، ص.143.

[66] اعتبرت في عهد الموحدين من بين أعظم مدن بلاد المغرب، تبعد عن البحر مسيرة عشرة أيام، نظرا لوقوعها في البر، توجد بها الكثير من البساتين وأنواع مختلفة من الغلال، القزويني أبو عبد الله بن زكريا بن محمد بن محمود (ت. 682هـ/1283م) : **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، (د. ت.)، ص.111-112.

[67] حسين مؤنس : **معالم تاريخ المغرب والأندلس**، مكتبة الأسرة للأعمال الفكرية، القاهرة، 2004، ص.188.

[68] مؤلف مجهول (كتبه سنة 712هـ/1312م) : **مفاخر البربر**، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار الرقاق، الرباط، 2005، ص.88 و 146.

[69] جمال أحمد طه : المرجع السابق، ص.84.

[70] اكتست بلاد السودان أهمية اقتصادية كبيرة للشمال المغربي، فقد حظيت هذه البلاد بخيرات وفيرة ومعادن نفيسة مثل الملح، النحاس، الحديد، الذهب، التبر بالإضافة إلى التوابل، لذلك اهتم بها المرابطون وأولها عناية فائقة. لمزيد من الشرح حول مكانة بلاد السودان بالنسبة للموحدين، ارجع إلى : سعد زغلول عبد الحميد : **تاريخ المغرب العربي، الفاطميون وبنو زيري الصنهاجيون إلى قيام المرابطين**، منشأة المعارف، الإسكندرية،(د. ت.)، ج.3، ص.513-515.

نصفين: قسم في الشمال، وآخر في الجنوب، فأوكل إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين (456-500هـ/1065-1106م)[71] قيادة الجيش الشمالي[72]، واختار هو التفرغ للجبهة الجنوبية، وهي الصحراء، فعمد إلى تطليق امرأته[73] زينب النفزاوية[74]، وأوصى ابن عمه الزواج بها، وهذا نظرا لكفاءتها وسداد رأيها في الحكم[75]. وتمكن الأمير أبو بكر بن عمر بسط الاستقرار في الحدود الجنوبية لدولته، وأزال فتيل الخلاف بين القبائل المتناحرة[76]، واهتدى إلى توجيه الطاقات والجهد إلى قتال الوثنين السودانيين، ولكي يضمن خطوط الإمداد وبعد العدة اتخذ من مدينة أودغشت[77] عاصمة له في الجنوب، وأرسل بقواته إلى الزنوج من السوننكي الذين خضعوا

---

[71] هو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتوني الصنهاجي، ظهر بفضل ابن عمه أبا بكر بن عمر، ساهم في العديد من الفتوحات، شيد مدينة مراكش، كان له الفضل في ضم الأندلس والانتصار على الصليبين في معركة الزلاقة. الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز(ت. 748هـ/1348م): **سير أعلام النبلاء**، تح. شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة،1405هـ/1984م، ج.17، ص.252-253. للمزيد من التفصيل حول شخصية يوسف بن تاشفين ارجع إلى : حامد محمد الخليفة : **انتصارات يوسف بن تاشفين (400هـ/1009م – 500هـ/1106م) بطل معركة الزلاقة وقائد المرابطين موحد المغرب ومنقذ الأندلس من الصليبين**، مكتبة الصحابة، الشارقة، 1425هـ/2004م ؛ محمد بن موسى الشريف : **الصفات والخصائص التي أبرزت الإمام المجاهد يوسف بن تاشفين المرابطي**، دار الأندلس الخضراء، جدة، 1431هـ/2010م.

[72] المراكشي عبد الواحد (ت. 647هـ/1250م) : **وثائق المرابطين والموحدين**، تح. حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1997، ص.20.

[73] ومن ضمن ما قاله أبو بكر لزوجته زينب : « **أنت امرأة جميلة بضة، لا طاقة لك على حرارة الصحراء، وإني مطلقك؛ فإذا انقضت عدتك فانكحي ابن عمي يوسف بن تاشفين** » وبعد انقضاء عدتها تزوجها يوسف بن تاشفين، وكانت هذه المرأة مشهورة بالجمال والرئاسة، بارعة الحسن، حازمة، لبيبة، ذات عقل رصين، ورأى سديد، ومعرفة بإدارة الأمور، فكانت نعم الزوجة المعينة لزوجها، وقد مدحت كتب التاريخ هذه المرأة، واعتبرتها من خيرة نساء دولة المرابطين، وتوفيت عام 464هـ/ 1071م. الصلابي : **فقه التمكين**، ص. 46. وعن أسباب طلاق أبو بكر بن عمر لزوجته ارجع إلى: نبيلة عبد الشكور : دور المرأة التارقية في نشر ثقافة السلام بين الأمس واليوم، في مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد 15 السنة، 2011، ص. 260-261.

[74] لمزيد من تفصيل حول طلاق زينب النفزاوية من أبي بكر وزواجها بيوسف بن تاشفين ارجع إل : مليكة حميدي : **المرأة المغربية في عهد المرابطين (448هـ-541هـ/1056م-1146م)**، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي، إشـــراف د. صالح بن قربة، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر2، السنة الجامعية (1422-1423 هـ/2001-2002 م). ص.40-47.

[75] حسين مؤنس : المرجع السابق، ص.188.

[76] حسن أحمد محمود : المرجع السابق، ص.231.

[77] تقع جنوب المغرب الأقصى في الصحراء، يقطنها مجموعة من البربر يتزعمهم الصناهجة ومنها يمر المسافرون والتجار إلى غانة، يعاني أهلها من العطش بسبب هبوب الرياح القوية. ارجع إلى : ابن السباهي زادة (ت.997هـ/1589م) : **أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك**، تح. المهدي عبد الرواضية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1427هـ/2006م، ص.179.

لملك غانة[78]. وطبق أبو بكر بن عمر منهج الوسطية والاعتدال في معاملة الأعداد، فخيرهم بين الإسلام أو الجزية، وأخضع خلقا كثيرا إلى سيطرته، وكان من عادة المرابطين محاربة الكفار أولا بدل المسلمين المخالفين لهم. فوجه قواته صوب الجنوب الشرقي لمبارزة أعدائه وخوض غمار الفتوحات، وضم إليه البلاد المتاخمة إليه على مسيرة ثلاثة أشهر وتمكن من نشر الإسلام في ربوعها[79].

ارتأى أبو بكر بن عمر الرجوع إلى الشمال بعد أن أتم مهمته في بلاد السودان على أكمل وجه[80]، فحل بجيشه في أغمات سنة 464هـ/1071م، وأرسل إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين يخبره بقرب وصوله إلى مراكش، وفي حديث يطول شرحه، تنازل أبو بكر لابن عمه على الحكم، ومن ضمن ما قاله: « **يا يوسف أنت أخي، وابن عمي، ولم أر من يقوم بأمر المغرب غيرك، ولا أحق به منك، وأنا لا غنى لي عن الصحراء، وما جئت إلا لأسلم عليك، ونسلم الأمر إليك، ونعود إلى الصحراء مقر إخواننا ومحل سلطاننا**[81]». وعرف القائد المحنك يوسف كيف يطيب خاطر ابن عمه، فأرسل إليه بهدية ثمينة، وترجاه أن يقبلها منه، وكان من ضمن ما كتبه إليه: « **كل ذلك قليل في حقك** ». سر أبو بكر كثيرا بالهدايا والرسالة التي بعثهما ابن عمه له حتى قال: «**خير كثير، ولم يخرج الملك من بيننا ولا زال عن أيدينا**»[82].

رجع أبو بكر إلى الصحراء مرة ثانية[83]، وتحاشى منازعة ابن عمه على الملك[84]، وعلم احتياج الناس إليه وإخلاصهم له[85]، وعزم عزما صادقا على التفرغ إلى الجهاد ونشر الإسلام في بلاد السودان الغربي[86]، وقرر

---

[78] عصمت عبد اللطيف دندش : المرجع السابق، ص.109-112.

[79] الصلابي : المرجع السابق، ص.60-61.

[80] ابن خلدون : المصدر السابق، ج.6، ص. 245.

[81] محمد لسان الدين بن الخطيب : المصدر السابق، ص.14-15.

[82] نفسه.

[83] يروي أهل تاريخ سببا من الأسباب التي دفعت أبو بكر بن عمر التنازل لابن عمه عن الحكم قصة طريفة مفادها، أن عجوزا فقدت ناقتها في غارة خاطفة قام بها الأعداء على المسلمين في بلاد السودان، فقالت : «**ضيعنا أبو بكر بن عمر بدخوله إلى بلاد المغرب**»، اليافعي أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (المتوفى: 768هـ/ 1367م) : مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417 هـ /1997م، ج.3، ص.126؛ وللمزيد حول تنازل أبو بكر بن عمر للحكم لابن عمه يوسف بن تاشفين، ارجع إلى : حسن علي حسن : **الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين**، مكتبة خانجي، القاهرة، 1980، ص.57-61.

[84] ابن خلدون : المصدر السابق، ج.6، ص. 245.

[85] أبو العباس أحمد بن محمد ابن خلكان (ت. 681هـ/1282م) : **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تح. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د. ت.)، ج.7، ص.113.

[86] عبادة كحيلة : **العقد الثمين في تاريخ المسلمين**، دار الكتاب الحديث، الكويت، 1417هـ/1996م، ص.327-328.

توجيه ضربة عسكرية لإمبراطورية غانة[87] القوية والعريقة، وبلغت أوج قوتها بين القرنيين 3هـ/9م إلى 5هـ/11م، وتعتبر أول كيان سياسي يحكم ويوحد بلاد السودان الغربي[88].

تيقن أبو بكر بن عمر أن إخضاع إمبراطورية غانا[89] سيكون له الأثر الكبير في محاربة الوثنية[90] وإحلال الدين الإسلامي في ربوع غانا وتعميق وجوده[91]، هذا من الجانب الاستراتيجي. أما اقتصاديا فطمح إلى ولوج التجار والتجارة الإسلامية إلى الطرق المؤدية إلى مناجم الذهب، وأدرك أيضا أن الاستيلاء على غانا سيساهم في إحياء الحركة التجارية على محورين أساسين وهما، محور فاس، سلجماسة، غانة ومحور سلجماسة أودغست[92].

اهتدى ابن عمر لتقسيم جيشه إلى نصفين : الأول تحت إمرته، والثاني تحت إمرة ابنه أبي يحيى، استطاع الجيشان تحقيق انتصارات واحدة تلو الأخرى وأحكما الحصار على العاصمة الغانية، وفتحها عنوة سنة

---

[87] تعتبر من أكبر الممالك في بلاد السودان ذات الاتساع الكبير فهي تمتد من السنغال غربا إلى تنبكت شرقا ومن النيجر جنوبا إلى الصحراء الكبرى شمالا. يدعي سلاطينها أنهم من نسل الحسين بن علي رضي الله عنه، أمها التجار المغاربة ونفذوا إليها عن طريق سلجماسة لجلب الذهب الأحمر، تزخر هذه البلاد بنهر يشبه نهر النيل بمصر يصب في المحيط الأطلسي، ابن سباهي زاده : المصدر السابق، ص. 480.

[88] بان حسين السنجري : **إمبراطورية غانا الإسلامية**، في مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية، العدد 2، الأنبار ،2012، ص.270.

[89] تعد من أكبر القبائل السودانية، تتصل بالمحيط الأطلسي من جهة الغرب على مصب النيل السوداني، وتتصل بها من جهة الشرق مملكة صوصو(النيجر) ، دخل البعض من ساكنيها إلى الإسلام، عاصمتهم غانة تبعد عن سلجماسة مسيرة ثلاثة أشهر، قصدها التجار من كل حدب وصوب، الناصري : المصدر السابق، ج.5، ص.99.

[90] أفاد الحسن بن محمد الوزان الفاسي (ت. بعد 957هـ/1550م) عن أوضاع السودانيين قبل فتوحات أبي بكر بن عمر فقال : " **يسكن هذه البلاد (السودان الغربي)كلها قوم يعيشون كالبهائم... يكادون لا يعرفون زرع الحبوب، ويلبسون جلود الغنم، وليس لأحد منهم امرأة خاصة به، وإنما يرعون الماشية في النهار أو يخدمون الأرض، ثم يجتمعون في الليل، عشرة إلى اثني عشر رجلا وامرأة في كوخ، ويضاجع كل واحد من تعجبه أكثر من غيرها... بعضهم يعبدون الشمس ويسجدون لها بمجرد ما يرونها تبرز في الأفق، وبعضهم يعبدون النار كأهل ولاتة، والبعض الآخر مسيحيون على طريق المصريين... وقد حكم هؤلاء يوسف بن تاشفين ملك مراكش ومؤسسها** " : **وصف إفريقيا**، تر. محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنش، ط.2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج.2، ص.159-160.

[91] سعود بن حمد الخثلان : الدافع الديني في هجوم المرابطين على غانا على ضوء كتابات المؤرخين المسلمين مع الإشارة على وجه الخصوص لتفسير ابن خلدون للهجوم، في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد 2، جمادي الأخيرة 1415هـ، الرياض، 1415هـ، ص.352.

[92] الطاهر قدوري : الطرق التجارية الصحراوية وامتداداتها في البحر المتوسط في العصر الوسيط، في مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد 15 السنة، 2011، ص.91-92.

469هـ/1076م[93] ، وتجلى عدل ووسيطة أبي بكر في هذه المعركة بجلاء كبير، إذ كان يخير الوثنيين بين الدخول في الإسلام أو الحرب، وسطع نجم وسطيته وحكمته في الإبقاء على ملك غانا على قيد الحياة، ومنحه أحقية الحكم في مملكته بشرط أن يتولى الحكم باسم المرابطين[94].

عامل أبو بكر بن عمر أهل مملكة غانا بالرفق واللين، ولم ينتقم منهم على الرغم من فتح المدينة بالقوة، وقام ببناء المساجد والرباطات وغيرها من المرافق، وساهمت هذه الوسطية والاعتدال في دخول الغانيين في دين الله أفواجا، وأناب ابنه أبا يحيى، وتابع الأمير فتوحاته نحو الجنوب إلى أن وصل إلى مناجم الذهب من بلاد وانقارة ودخل الأهالي في دين الإسلام نظرا لسماحته ووسطيته[95].

حقق أبو بكر بن عمر العديد من الأهداف بغزوه وفتحه لمملكة غانا، منها: التقليل من قوة المملكة والتي طالما ما شكلت خطرا محدقا على المرابطين من جهة الجنوب، وضمن أيضا ولاء قبائل صنهاجة له ولدولته، كما تمكن من نشر الإسلام في العديد من القرى والقبائل في أقصى جنوب السودان على غرار قبيلتي التكرور[96] والصوصو، وعززت هذه القبائل من نشر الإسلام في بلاد السودان كما ساهم في تأمين المسالك التجارية للتجار المغاربة وضمن لهم الوصول إلى أسواق الذهب[97].

3-3- مدى نجاح وسطية أبي بكر بن عمر في تحقيق أهدافها في بلاد السودان الغربي:

الواقع أن أبا بكر بن عمر اختار منهج الوسطية والاعتدال، في جل مجالات وتوجهات دولته، الدينية منها والسياسية، فمن الجانب السياسي تجلت وسطيته من خلال تحديد علاقته مع الخلافة الإسلامية[98] في المشرق، ولم يغتر بالإنجازات والانتصارات الحاسمة التي حققها على أرض الميدان فقد ارتبط بالخلافة

---

[93] فيج . جي. دي : **تاريخ غرب إفريقيا**، ترجمة وتقديم وتعليق السيد يوسف نصر، راجعه بهجت رياض صليب، دار المعارف، القاهرة، 1982، ص.49-50.

[94] **الموسوعة العربية العالمية**،ط.2، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، 1419هـ/1999م، ج.23، ص.66.

[95] بان حسين السنجري : المرجع السابق، ص. 275؛ سعود بن حمد الختلان : المرجع السابق، ص.361.

[96] تعد من بلاد السودان، ينقسم أهلها إلى قسمين حضر ويقطنون في المدن وقسم الرحل يسكنون البوادي، امتد وجود هذه القبيلة أعالي السنغال والنيجر ، ابن السباهي زاده : المصدر السابق، ص.251؛ إلهام محمد علي ذهني : **جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي**، دار المريخ للنشر، الرياض، 1988، ص.48.

[97] محمد الغربي : **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي** ، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت، ج.1، ص. 39-40؛ كولين ماكيفيدي : المرجع السابق، ص. 85. وانظر أيضا : سليمان عبد الستار : إفريقيا الإسلامية (دراسة للدول الإسلامية والمسلمين في القارة) ، في مجلة الدراسات الإفريقية، العدد5، السنة 1976، القاهرة 1976، ص.221.

[98] لمزيد من الإيضاح حول علاقة أبي بكر بن عمر بالخلافة العباسية ارجع إلى : حسين مؤنس : **سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس**، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، 1420هـ/2000م، ص. 12-16.

العباسية ولم يخرج على طاعتها كما فعل العديد من القادة والزعماء في المشرق والمغرب الإسلاميين[99]. فكثير من هؤلاء وأولئك لما أحسوا بقوتهم، رفعوا لواء العداء للعباسيين، لكن أبا بكر بن عمر على الرغم من أنه لم يتلق أي شكل من أشكال المساعدة من سلطة بغداد إلا أنه أخذ بزمام المبادرة، وفضل إظهار الولاء والطاعة للخليفة العباسي. دل على ذلك العملة النقدية المعدنية التي ضربت في سلجماسة أيام حكم أبي بكر بن عمر في حدود سنة (451هـ/1059م)[100].

نجحت الدعوة المرابطية في تحقيق أهدافها المسطرة في الشمال المغربي والجنوب السوداني بفضل إخلاصهم في الدعوة ورفعهم للظلم والجور المسلط على الرعية، وذلك من خلال تطبيق الكتاب والسنة والفقه المالكي، وعمدوا إلى تطهير بيت المال المسلمين من الموارد غير الشرعية[101]، وذلك عن طريق تخفيف الأعباء من مكوس وضرائب على الناس، ولم يبقوا منها إلا ما أقرته الشريعة الإسلامية من زكاة وعشور، وقسموا الغنائم على الناس وفق الشرع الحنيف، وأكرموا العلماء والمشايخ، وهو ما كان له أبلغ الأثر في نجاحهم[102]، وما لم تحققه الغزوات والحروب في مجال نشر الإسلام في بلاد السودان فإن التجارة لعبت دورا كبيرا في هذا المجال، وربما فاقت الحروب أحيانا في دخول الناس في دين الله أفواجا، فانتشر عن طريق التجارة انتشارا سريعا وهادئا، سواء في عهد أبي بكر بن عمر أو بعد هلاكه[103]. وقد حقق نجاحا باهرا، واحتراما منقطع النظير من طرف العامة والخاصة. ولا أدل على ذلك فعند مقتله ثارت جل القبائل السودانية مطالبة بدمه[104].

إن تحلي المرابطين عموما وأبي بكر بن عمر بالوسطية، والتي من مظاهرها السلم والهدوء لم يشهد بهذه الحقيقة المسلمون والمتعاطفون معهم من الديانات الأخرى فحسب، كالمستشرق توماس ارنولد Sir Thomas W. Arnold,[105]، وإنما حتى من عرف عنهم الحقد والكراهية لانتشار الإسلام، فهذا المستشرق

---

[99] جمال الدين فالح الكيلاني : **التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى رؤية معاصرة**، مكتبة المصطفى للنشر، القاهرة، 2011، ص.187.

[100] ابن الأثير : المصدر السابق، ج.8، ص.448.

[101] الحسن السائح : **الحضارة الإسلامية في المغرب**، ط.2، دار الثقافة والدار البيضاء، 1406هـ/1986، ص.196.

[102] عصام الدين عبد الرؤوف الفقي : **تاريخ المغرب والأندلس**، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، (د. ت.)، ص.252.

[103] شوقي عطا الله الجمل : **الحضارة الإسلامية العربية في غرب إفريقيا سماتها وعوامل انتشارها**، ، في مجلة الدراسات الإفريقية، العدد8، السنة 1979، القاهرة 1979، ص.29-42.

[104] سعود بن حمد الختلان : المرجع السابق، ص. 356.

[105] سير توماس . و. أرنولد : **الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية**، ترجمة وتعليق حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1971.

ترمنجهام Triminham Spencer أقر بأن الإسلام انتشر في بلاد السودان الغربي في العهد المرابطي بالهدوء والسلم[106]، وفي هذا اعتراف ضمني من هذا المستشرق بمدى دور الوسطية في شيوع وذيوع دعوة الإسلام إلى أدغال إفريقيا.

نهايته، وما قيل في أبي بكر بن عمر:

4-1- وفاته:

تابع أبو بكر سياسة نشر الإسلام في الجنوب الغربي من بلاد السودان، وعمل كل ما بوسعه القضاء على مظاهر الشرك والسحر والشعوذة المنتشرة في جنوب السودان الغربي، فقد تمكن أحد من زعماء القبائل من إرسال شخص أوكله بقتل أبي بكر بن عمر الذي كان منشغلا بالصلاة، فسدد إليه سهما مسموما أردته قتيلا، وكان ذلك في شعبان من سنة 480هـ/1087م. بعد هذه الفاجعة التي ألمت بالمسلمين آل لقب أمير المسلمين إلى ابن عم الأمير، يوسف بن تاشفين، والذي رفع راية الجهاد عالية في بلاد الأندلس، وكان خير خلف لخير سلف[107].

4-2- ما ذا قالوا عن المجاهد والفاتح أبي بكر بن عمر؟.

شهد لأبي بكر بن عمر معاصروه والذين جاءوا من بعهده بجل صفات وخصال الصلاح والاستقامة والوسطية في الدين والمعاملة والحكم، فشهد له شيخه عبد الله بن ياسين بكفاءته ورجاحة عقله ومدى القبول الذي تمتع به، فقال عنه لما عزم تسليمه شؤون الإمارة: « **الرأي أن نولي ذلك (الحكم) أبا بكر بن عمر رأس لمتونة وكبيرها وهو رجل سيد مشكور الطريقة مطاع في قومه فهو يستجيب لنا لحب الرياسة وتتبعه قبيلته فنتقوى بهم** [108] ».

وهذه امرأته زينب النفزاوية والتي طلقها لمصلحتها تشهد بأنه زاهد في الدنيا، لا يغره متاعها وزينتها، فتقول لزوجها يوسف بن تاشفين لما أحس بأن أبا بكر رجع من الصحراء إلى الشمال وتخوف عن منصبه وزعامته السياسية والدينية في الشمال:« **لا يقاتلك على الدنيا، فإن الرجل خير، لا يستحل سفك دماء المسلمين** ». وجاء في رواية أخرى: « **إن ابن عمك رجل متورع من سفك الدماء، ولا تستهل عليه الفتنة**[109] .

---

[106] سعود بن حمد الخثلان : المرجع السابق، ص.210.

[107] ابن الأثير : المصدر السابق، ج.8، ص.448.

[108] نفسه.

[109] دندش : المرجع السابق، ص.104.

وشهد له رعيته بالسهر على مصالحهم وأن غيابه عنهم يترك فجوة لا يستطيع أيا كان أن يسدها، وفي هذا الصدد، قالت عجوز فقدت ناقتها في غارة كان فيها ابن عمر رجع إلى الشمال «**ضيعنا أبو بكر بن عمر بدخوله إلى بلاد المغرب**[110]». هؤلاء الذين عاصروا الرجل هذا الأمير الصالح، شهدوا له بأحقيته في الإمارة ووسطيته في الدين والدنيا، فما ذا قال عنه الذين جاءوا من بعده؟.

أثنى على الأمير أبي بكر بن عمر جمهرة من المؤرخين المسلمين المشهود لهم بالعدالة والوسطية، وقد أثنوا على تواضعه وشغفه بالصحراء، ومن هؤلاء ابن خلكان أبي العباس أحمد بن محمد(ت. 681هـ/1282م)، قال فيه: « **كان رجلا ساذجا** (بسيط ومتواضع) **خير الطباع مؤثرا لبلاده (الصحراء) على بلاد المغرب غير ميال إلى الرفاهية** [111]». ومما قيل فيه أيضا بخصوص صلاحه وورعه ومحافظته على دماء المسلمين، وفي هذا الشأن أفاد أبو بكر زرع الفاسي (ت. 726هـ/1326م) «**وكان الأمير أبو بكر رجلا صالحا كثير الورع فلم يستحل قتال المسلمين وسفك دمائهم**[112] ».

نوه بخصال وسجايا الأمير في شجاعته وعدله الإمام الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد(ت. 748هـ/1348م) فقال : « **واستناب ابن تاشفين، فطلع بطلا شجاعا شهما عادلا مهيبا** [113] ». أما الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل ابن كثير (ت. 774هـ/1372م)، فقد مدح الأمير وشهد له بالوسطية والاعتدال وكثرة أتباعه وحبه للجهاد في سبيل الله، فقال كلاما نفيسا في هذا المضمار: « **أبو بكر بن عمر أمير الملثمين كان في أرض غانة، اتفق له من الناموس ما لم يتفق لغيره من الملوك، كان يركب معه إذا سار لقتال عدو خمسمائة ألف مقاتل، كان يعتقد طاعته، وكان مع هذا يقيم الحدود ويحفظ محارم الإسلام، ويحوط الدين ويسير في الناس سيرة شرعية، مع صحة اعتقاده ودينه، و موالاة الدولة العباسية، أصابته نشابة في بعض غزواته في حلقه فقتلته**[114] »، فالفتوحات الإسلامية التي تحققت في عهد الأمير أبي بكر بن عمر اعترف بها العلامة عبد الرحمن بن خلدون (ت. 808هـ/1406م)، وأثنى على الرجل ثناء عجيبا، ومن ضمن ما قاله : « **ورفع ما كان بينهم من خرق الفتنة، وفتح بابا من جهاد السودان، فاستولى على نحو تسعين رحلة**

---

[110] عبد العزيز بن سعود الضويحي : المرجع السابق، ص.708.

[111] المصدر السابق، ج.7، ص.113.

[112] الفاسي علي بن عبد الله بن أبي زرع (ت. 726هـ/1326): **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، صور للطباعة ووراقة، الرباط، 1972، ص.135

[113] المصدر السابق، ج.17، ص.252.

[114] ابن كثير أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو الدمشقي (ت. 774 هـ/1373م) : **البداية والنهاية**، تحقيق احمد بن علي وعبد الرحمن فهمي، دار الغد الجديد، القاهرة، 2007، ج.17، ص.171.

من بلادهم[115]». هذا وقد رسخ وسطية أبي بكر وصلاحه العلامة عبد الله محمد بن أبي دينار (ت.1101هـ/.1690م) بقوله: « **كان صالحا متورعا ... وكان أبو بكر دينا لا يستحل دماء المسلمين**[116]».

وإن الثناء والإشادة التي نالها الأمير الوسطي لم تقف عند من عاصروه والمؤرخين القدامى الذين جاءوا من بعده، وحتى الباحثين المعاصرين الذين أعجبوا بشخصية وأخلاق ومكارم الرجل كثيرين، ومن هؤلاء اخترنا ما أورده الدكتور الصلابي، فقال:« **لقد كان أبو بكر بن عمر من أعظم قادة المرابطين، وأتقاهم وأكثرهم ورعا ودينا وحبا للشهادة في سبيل الله، وساهم في توحيد بلاد المغرب، ونشر الإسلام في الصحارى القاحلة وحدود السنغال و النيجر، وجاهد القبائل الوثنية حتى خضعت وانقادت للإسلام والمسلمين، ودخل من الزنوج أعداد كبيرة فيالإ سلام، وساهموا في بناء دولة المرابطين الفتية، وشاركوا في الجهاد في بلاد الأندلس وصنعوا مع إخوانهم المسلمين في دولة المرابطين حضارة متميزة**[117]».

خاتمة:

وصفوة القول نجد أن مبدأ الوسطية الذي طبقه المسلمون واتخذوه شرعة ومنهاجا، ويشهد التاريخ البشري أن جل الفاتحين المسلمين تحلوا بالوسطية والاعتدال أثناء الحروب والغزوات، ومن هؤلاء الأمير أبو بكر بن عمر الذي حقق هذا المبدأ وجسده على أرض الواقع، ومن النتائج التي يمكن استنباطها من هذه الدراسة، يوجد:

إن انتشار الإسلام منذ بداية ظهوره انتشر بين الأمم والشعوب والقبائل بفضل سماحته ووسطيته، بهذه الطريقة تمكن الإسلام من الانتشار في ربوع المعمورة ولم يبق محصورا في عرق من الأعراق، أو جنس من الأجناس، وبقيام دولة المرابطين على أسس ثابتة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإن لدعاتها فضلا كبيرا في وصول الإسلام إلى ما وصل إليه في بلاد السودان.

تحلى القادة المرابطون من أمثال عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر وغيرهم بمبدأ الوسطية والاعتدال في توحيد القبائل المغربية والسودانية تحت راية واحدة، وهو ما مكنهم من توحيد بلاد المغرب تحت زعماتهم، ونعموا بالوحدة الإسلامية بعد ما فرقتهم الطائفية أحيانا، والغلو والإفراط أحيانا أخرى.

---

[115] المصدر السابق، ج.6، ص.245.

[116] ابن أبي دينار أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (ت. نحو 1110هـ/1698م) : **كتاب المؤنس في أخبار افريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية**، تونس، 1286هـ، ص.101-102.

[117] فقه التمكين، ص.43.

أبو بكر بن عمر نال إعجاب العلماء والدعاة وعامة الناس نظرا لتحليه بالأخلاق الفاضلة، وهو ما سمح بدخول الإسلام إلى شمال بلاد السودان الغربي في ظرف عرفت فيه الفتوحات الإسلامية تباطؤا ملحوظا إلى حين مجيء المرابطين الذين رفعوا لواء الفتوحات من جديد، وأعادوا الهيبة للإسلام والمسلمين.

أبو بكر بن عمر لم ينل الحظ الوافر من الكتابات التاريخية، نظرا لاشتغال المؤرخين والكتاب بأحداث الأندلس خاصة مع النتائج الباهرة والانتصار الحاسم الذي حققهما يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة الشهيرة والتي طغت على معظم مسرح الأحداث.

على الرغم من الإنجازات الباهرة التي حققها المرابطون في مجال الفتوحات الإسلامية ونشر الإسلام في بلاد السودان إلا أن دولتهم لم تصل إلى درجة كبيرة في مجال الحضارة والرقي المدني وتمسكوا بالبساطة الصحراوية. قلة المادة العلمية المتخصصة التي تتحدث عن إنجازات المرابطين بصفة عامة والفتوحات الكبيرة التي تمت في بلاد السودان تحت إمرة أبي بكر بن عمر ترجع إلى اهتمامهم بتأليف الرجال عن تأليف الكتب وبتغير المنكر ومحاربة البدع والخرافات والطوائف الضالة على أرض الواقع بدل التدوين والتحرير.

خريطة تمثل القبائل المنتشرة في بلاد السودان الغربي والتي انتشر فيها الإسلام في عهد المرابطين

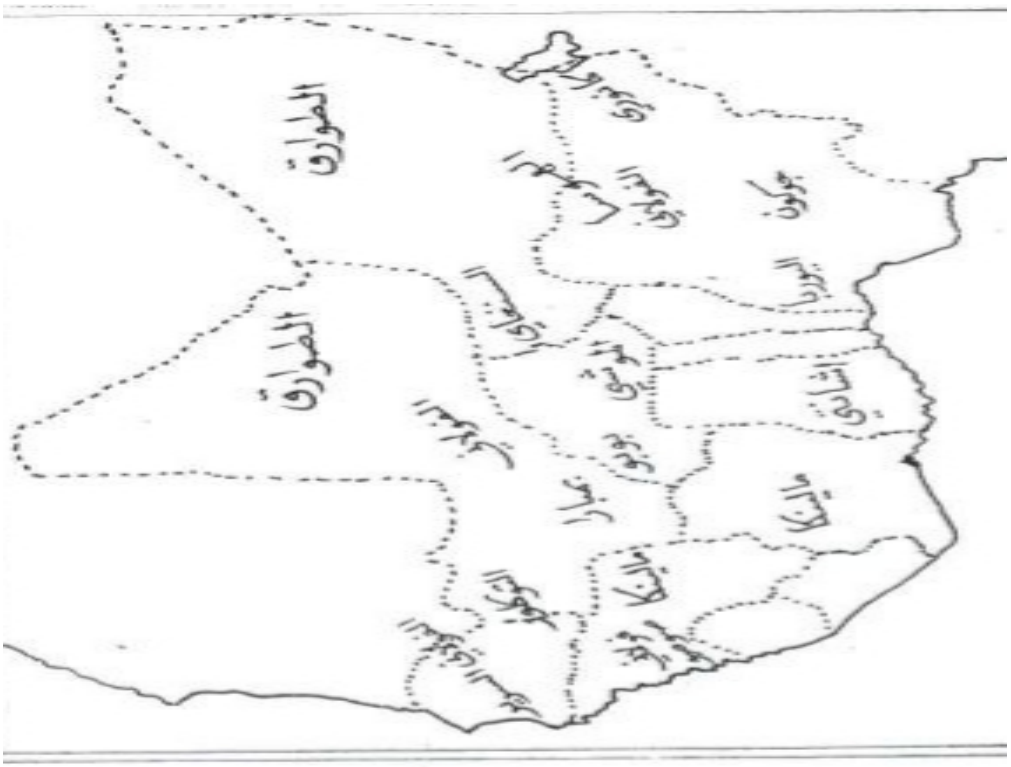

نقلا عن : فتحي محمد أبو عيانة : **جغرافية إفريقيا، دراسة إقليمية للقارة مع تطبيق على دول جنوب الصحراء**، دار النهضة العربية، بيروت، 1983، ص.232.